سبحان مغني

نشأة النحو العربيّ

Abstrak

Setelah bangsa Arab melakukan penaklukan ke berbagai wilayah di sekitarnya, banyak di antara para penduduk daerah tersebut yang masuk Islam. Sebagai konsekwensinya, mereka pun mempelajari bahasa Arab guna memahami ajaran Islam yang terkandung dalam al-Qur'an. Seiring dengan itu, percampuran antara bangsa Arab dan non-Arab ('ajam*) telah mengakibatkan terjadinya pencemaran (*lahn*) dan ketidakfasihan dalam berbahasa Arab. Sesuatu yang dapat merusak kemurnian bahasa Arab. Didorong untuk memelihara kemurnian bahasa al-Qur'an inilah kehadiran* nahwu *(gramatika bahasa Arab) sebagai sebuah disiplin ilmu menjadi penting.*

Dipelopori oleh para ulama di daerah Basrah (Irak), ilmu nahwu tumbuh menjadi sebuah disiplin ilmu yang mandiri dan berkembang menjadi sebuah aliran nahwu terkenal yang biasa disebut dengan Madzhab Basrah. Pada perkembangan berikutnya muncul berbagai aliran lain yang memiliki karakteristik tersendiri dan metode yang berbeda dengan Madzhab Basrah, seperti aliran Kufah, aliran Baghdad, aliran Mesir, dan aliran Kordoba. Namun, dari sekian aliran tersebut hanya madzhab Kufah-lah yang dapat dikatakan setara dengan madzhab Basrah. Sehingga wacana gramatika bahasa Arab sempat diramaikan oleh perdebatan panjang antara para cendekiawan nahwu dari kedua aliran tersebut.

Tulisan ini mencoba melacak motif-motif munculnya dan sejarah berkembangnya ilmu nahwu sebagai sebuah disiplin tersendiri.

Kata Kunci: *Nahwu, lahn, madzhab, Basrah, Kufah.*

المقدّمة

بعد أنّ فتح العرب كثيرا من البلاد والأمصار، دخل أهلها في دين الله أفواجا، وتعلّموا القرآن ودرسوا اللغة العربية وتكلّموا بها، فبدأت اللكنة تظهر في كلامهم كما بدأ اللحن واضحا في نطقهم. ولا شكّ في أنّ العربي بمخالطته للدخلاء على العربية ولسانها قد أصابته عدواهم وانتقلت إليه آثار من لكنهم ولحنهم. كما أنّ نشأة أولاد الأمراء والخلفاء والأثرياء

بين أمهات أو مربيّات أعجميات كان له أثره في إفساد طباعهم وفطرهم الأدبية الموروثة.

لم يقع اللحن في عصر النبوّة وما بعده من العربية إلا نادرا ، وذلك لسلامة الملكات وقلّة اختلاط العرب بغيرهم وقرب عهدهم بالبداوة .

إنّ آثار اختلاط العرب بالعجم قد ظهرت فى الألسنة في مظاهر كثيرة ، هي : اللحن واللكنة ، وضعف الملكة والطبع . وقد خيف على لغة القرآن الكريم من تفشّي ظاهرة اللحن، وقام العلماء بمقاومته ، فوضعوا علم النحو .

تعريف النحو

قبل التعرض إلى موضوع نشأة النحو ، ينبغي لنا التعرف على مصطلح النحو أولا.

وقد عرّفه أبو يعقوب السكاكي حيث قال: " علم النحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا بمقاييس مستنبطه من استقراء كلام العرب وقوانين مبنية عليها ليحترز بها عن الخطأ في التركيب من حيث تلك الكيفية ".[1]

وقال أبو الفتح عثمان بن جنّي: " النحو إنما هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرّفه من إعراب وغيره ، كالتثنية والجمع والتحقير والتكبير والإضافة والنسب وغير ذلك ، ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم ، أو إن شذّ بعضهم عنها ردّ به إليها . وهو في الأصل مصدر شائع أي : نحوت نحوا ، كقولك: قصدت قصدا ، ثمّ خصّ به انتحاء هذا القبيل من العلم ، كما أن الفقه في الأصل مصدر : فقهت الشيء ، أي عرفته ، ثمّ به علم الشريعة من التحليل والتحريم ".[2]

وقال ابن منظور فى فصل النون ، حرف الواو والياء من المعتل : نحا الأزهرى : نبت عن اهل يونان ، فيما يذكر المترجمون العارفون بلسانهم ولغتهم ، أنّهم يسمّون علم الألفاظ والعناية بالبحث عنه نحوا . والنحو : إعراب الكلام العربي. والنحو : القصد والطريق ، نحاه ينحوه وينحاه نحوا وانتحاه ، ونحو العربية منه ".[3]

أسباب وقوع اللحن

ويرجع التفكير علم النحو إلى القرن الأوّل الهجري عندما اقتضت الحاجة إلى وضعه لعدة أسباب، أهمّها تسرّب اللحن والخطأ إلى كلام الناس. فخافوا من انتشاره فيما يتصل بعباداتهم خاصة، القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف واللغة الأدبية التى دوّنت بها أشعار العرب وخطبهم وأقوالهم المأثورة.

وفيما يلي تلخيص لأسباب وقوع اللحن فى كلام العرب كما أشار إليها الدكتور ناصر حسين علي:[4]

ا- تسرّب الكلمات الدخيلة من اللغات الأجنبية إلى العربية الفصحى عن طريق التجارة سواء إلى بلاد العرب أو أنّ العرب يقصدون بلاد الأمم الأخرى ، فيختلطون معهم ويأخذون من مفرداتهم.

ب- تمثّل الحروب من عوامل انتشار اللحن في العربية، فإنّه يمثّل نوعا من الاختلاط بين المجتمعات.

ج- أدّى الزواج بأجنبيات أو زواج الأجانب ببعض العربيات إلى تبادل مفردات العربية ولغة الأجانب من أزواج أو زوجات.

د- أدّى دخول غير العرب في الإسلام إلى تعريفهم بمبادئه الحنيفة ، فاكتسب المعلمون بعض مفردات الأجانب.

ه- أسهم انتشار الإسلام في الأمم الأخرى عن طريق الفتوحات.

و- هجرة بعض القبائل العربية من أماكنها الأصلية التى تميزت بالفصاحات إلى أماكن أخرى أقلّ فصاحة إمّا لمجاورة أممًا أعجمية ، وإمّا لاختلاطها بعرب غير فصحاء.

أسباب وضع النحو

يمكن ردّ أسباب وضع النحو العربي إلى عدّة بواعث،[5] منها :

(1) **البواعث الدينية** : ترجع إلى الحرص الشديد على أداء نصوص الذكر الحكيم أداء فصيحا سليما ، خاليا من اللحن ، تفاديا للضلال الذى قال عنه الرسول صلّى الله عليه وسلم عندما سمع قارئا يلحن فقال : " أرشدوا أخاكم فقد ضلّ" وهو الحرص بعينه، والغيرة على لغة القرآن الكريم ،[6] وخاصة بعد أن أخذ اللحن يشيع على الألسنة.

(2) **البواعث القومية**: ترجع إلى اعتزاز العرب بلغتهم اعتزاز شديدا ، وهو اعتزاز جعلهم يخشون عليها من الفساد حين امتزاجو بالأعاجم ، ممّا جعلهم يحرصون على رسم أوضاعها خوفا عليها من الفناء والذوبان في اللغات الأعجمية.

(3) **البواعث الاجتماعية**: إنّ الشعوب المستعربة أحسّت بالحاجة الشديدة إلى قوانين يهتدى بها كل من يرسم بها أوضاع العربية في إعرابها وتصريفها حتى تتمثلها تمثلا مستقيما ، وتتقن النطق بأساليبها نطقا سليما".

وهذه البواعث المتشابكة دفعت دفعا إلى التفكير في وضع النحو ، ولا بدّ أن نذكر هنا أنّ رقيّ العقل العربي ونموّ طاقته الذهنية أعدّه للنهوض برصد الظواهر اللغوية وتسجيل الرسوم النحوية تسجيلا تطّرد فيه القواعد وتنظم الأقيسية انتظاما يهيّء لنشوء علم النحو ووضع قوانينه الجامعة المشتقة من الاستقصاء الدقيق للعبارات والتراكيب الفصيحة ، ومن المعروفة التامة بخواصها وأوضاعها الإعرابية.

مرحلة التقعيد وأوليّة وضع النحو

بدأت مرحلة التقعيد مباشرة بعد جمع المفردات العربية، حيث فكّر اللغويون فى وضع ضوابط للمفردات المتشابهة فى معانيها ووظائفها ودورانها فى الكلام على حسب ما نطقت بها العرب على السليقة، ونتيجة لذلك علموا أنّ الفاعل مرفوع والمفعول به منصوب والأفعال التى عينها ياء أو واو تقلب فى بعض تصاريفها.[7]

فوضعوا ضوابط خاصة بذلك تسرى على كل المفردات التى تنتمى إلى مجموعة الفاعل أو المفعول – على سبيل المثال- وهكذا .

والحقّ أنّ النحو فى بدايته ونشأته لا يعدو كونه ملاحظات يسيرة جدّا ، القصد منها إبعاد اللحن عن اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، وكتب بها الحديث النبوي الشريف وأخبار العرب وأقوالهم.

قد اختلف العلماء فى أول من وضع النحو وتختلف الروايات فى نشأته، وذلك لأنه عملية خلق يشترك فيها أكثر من عامل، ويسهم فيها أكثر من شخص. وربّما تبرز الفكرة فى عدّة أماكن، وفى أزمنة متفاوتة، ويدّعى كل فريق فصب السبق إليها. ومع ذلك فإنّ كل الروايات تجمع على أنّ عليا

بن أبى طالب هو الذى وضع الخطّة الأولى، وأنّ أبا الأسود الدؤلي بدأ بتنفيذها.[8]

العصور النحوية

قد حاول الدكتور محمد المختار على تمييز أبرز خصائص كل عصر نحوي حسب تسلسل الظواهر النحوية عبر التاريخ، وها هو التحقيب الذى وصل إليه :[9]

(1) **عصر النشأة والتأسيس** (القرن الأول الهجري)، فى هذا العصر، تكامل وضع الأسس الأوّلية لعلم النحو ورسمت أصوله واستنبطت قواعده.

(2) **عصر التدوين والتصنيف** (القرن الثاني الهجري)، قد اكتمل التدوين والتصنيف فى هذه الحقبة التى برز فيها كتاب لسيبويه وألفت فيها كتب المسائل ومعانى القرآن.

(3) **عصر البيان والتحصيل** (القرن الثالث الهجري)، يسمّى هذا القرن أيضا بعصر " البيان والتعقيب " ترجمة لأعمال المبرّد وثعلب اللذين حرصا على بسط آراء علماء القرن الثانى وهم الخليل وسيبويه والكسائ والفرّاء ، وتوضيح غوامضها، وبيان أسسها والتعقيب على قواعدها ، ورسم معالم أصولها المذهبية بين البصريين والكوفيين.

(4) **عصر الحصر والتنظير** (القرن الرابع الهجري)، بلغت الدراسات النحوية أوجها وعمت أرجاء العالم الإسلامى. وبدأت المذاهب فى هذا العهد تتخذ شكل النظريات المقننة. وقد ظهر فى هذا القرن أيضا الاتجاه الانتقائ عند ابن كيسان وابن السراج وأترابهما ممّا

يسمّى بالمدرسة البغدادية، وهم جمعوا بين آراء المدرستين البصرية والكوفية.

(5) **عصر التأصيل والتقويم** (القرنان الخامس والسادس)، يتحول مركز ثقل الدراسات النحوية من المشرق إلى المغرب. فتزدهر علوم اللغة بين ربوع الأندلس ثمّ تمتدّ إلى الحواضر المغربية لتستمرّ أكثر من قرنين .

(6) **عصر التصحيح والتثبيت** (القرن السابع الهجري وما بعده)، اكتملت جهود البحوث النحوية فى القرن السابع بجميع أشكالها، وكان لابدّ من عملية انتقاء مذهب يرمى إلى اختيار المنهج الصحيح وتثبيت هذا المنهج وتعميمه. وتمّت هذه المرحلة على ابن مالك الجيانى الذى استطاع على أن يفرض بحسن اختياره الصورة الحالية للنحو العربي التقليدي. ومنذ خمسة قرون والدراسات النحوية تتمحور حول كتبه خصوصا كتاب "الألفية " أو "الخلاصة" الذى صار المرجع التدريسي فى جميع الهيئات التعليمية.

(7) **عصر التجديد والتيسير** (العهد المعاصر)، قد يكون من الأولويّات لعلماء النحو اليوم أن يميزوا بين ما هو ضرورى للعامة، ومعين على إحكام اللغة العربية وتذوّقها وتطويعها لتلبية الحاجات والرغبات الثقافية والعلمية. وهكذا جاءت حركة التجديد والتيسير تلبية لحاجة الدارسين اليوم إلى تصفية التراث النحوي.

المدارس النحوية

حرص أغلب المتقدّمين من النحويين على اتخاذ مذهب نحوي معيّن عرف به. ويعدّ المذهبان النحويان : البصري والكوفى أساسا للمذهب الأخرى التى نشأت فيما بعد، وكل من هذين المذهبين ينتمى إلى مدرسة نحوية مشهورة،

فالبصري ينتمى إلى مدرسة البصرة، والكوفى إلى مدرسة الكوفة.

فقد نشأ النحو في بدايته الأولى في البصرة. أمّا أهل الكوفة في ذلك الوقت كانوا منصرفين إلى دراسة القرآن وعلومه ورواية الشعر. وعندما ازداد اللحن في كلام العرب، تبيّن للكوفيين أنّ اللغة العربية – وهي اللغة التي نزل بها القرآن الكريم – مهدّدة بهذه الآفة المخيفة أي آفة اللحن. لذلك هبّوا للذود عنها [10] من جهة، بينما كان أهل البصرة قد عظم شأنهم وبرز علماؤهم لما وضعوه من علم النحو من جهة أخرى، فثارت روح المنافسة بين أهل المدينتين .

ولمالم تكن لأهل الكوفة دراية فى النحو ولا التأليف فيه، اتجهوا إلى البصرة، فجلس الكسائ الكوفي مثلا فى حلقة الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري ليتعلم النحو. وبعد الأخذ من البصرة، أنشأ الكوفيون مدرسة نحوية ذات مذهب خاص بهم يتميز فى أصوله ومناهج درسه عن مذهب أهل البصرة. وممّا يعدّ من إبداع مدرسة الكوفة أنهّا أنشأت علم التصريف مستقلا عن النحو، إذ تأخّرت نشأته عنه. ويعود الفضل فى ذلك إلى معاذ بن مسلم الهراء الكوفى (توفى 197 هجرى).

وظلّ الإبداع فى هذين العلمين محصورا فى هاتين المدرستين – البصرة والكوفة – كما ظلّ التنافس بينهما قائما، واحتدمت المناقشات حتى بلغت أشدّها على يد محمد بن يزيد المبرد البصرى (ت 285 هجري) وأحمد بن يحى ثعلب (ت 291 هجري) فى عهدهما. [11]

ونشأت بعد ذلك مذاهب نحوية وصرفية تمثل مدارس أخرى، مثل **المدرسة البغدادية** وقد تميزت هذه المدرسة بمنهجها الخاص. ولم يكن هذا المنهج جديدا من الأسس أو طرائق الاستنتاج، ولكنه منهج ينبني على الانتقاء بين

مدرستي البصرة والكوفة. ومن ثمّ رأينا الرواد الأوائل لمدرسة بغداد يقبلون على الكوفة ويزيدون من الأخذ عنها، لكنّهم يأخذون عن البصرة أيضا، وإن كان ميلهم إلى الكوفة أشدّ. وأشهر هؤلاء الرواد ابن كيسان (ت 199 هجري) وابن شقير (ت 315 هجري) وابن الخياط (ت 320 هجري).[12] ومن علمائها أيضا أبو على الفارسى (ت 177 هجري) وأبو الفتح عثمان بن جني (ت 392 هجري).

ثمّ توالت المدارس النحوية بعد ذلك، فنشأت **مدرسة الأندلس** النحوية. قد بدأ الأندلسيون يرحلون إلى المغرب طلبا للعلم، وأقبل عدد من علماء المشرق إلى الأندلس يحملون علمهم إلى أهلها، وكان منهم أبو علي القالى الذي ظلّ فى قرطبة حتى توفى بها عام 356 هجري . ورغم أنّ النحويين الأندلسيين الأوائل كانوا أكثر إقبالا على الكوفة بسبب إقبالهم على القراءات ، فإنّ كتاب سيبويه قد احتلّ عندهم مكان الصدارة من حيث الدرس والحفظ والشرح والتعليق عليه. ويتوالى علماء الأندلسى فى الأخذ عن مذاهب البصرة والكوفة وبغداد، لكنّهم لايخضعون خضوعا كاملا للنحو المشرقي، بل يضيفون إليه ما يتوصلون إليه. ومن أشهر علمائها ابن مضاء القرطبي (ت 592 هجري).[13]

وتلتها **المدرسة المصرية**، وقد ازدهر الدرس النحوي في عصر المماليك ازدهارا كبيرا، وكان يفد إليها عدد كبير من علماء الأقطار الإسلامية. ومن أشهر علمائها ابن هشام (ت 761 هجري). وكأنّما نفخ ابن هشام فى النحو من روحه فنشطت دراسته نشاطا واضحا، وظهر عدد كبير من العلماء، وتوفر عدد منهم إلى تقديم الشروح والحواشي خاصة إلى كتب ابن هشام وعلى ألفية ابن مالك.[14] ومن أشهرهم ابن عقيل شارح الألفية (ت 769 هجري).

وبالرغم من ظهور تلك المدارس النحوية المتعددة فإنّ النحويين بعد ذلك قد انقسموا إلى فريقين كبيرين فحسب: أحدهما يؤيد المذهب البصري ويأخذ به، والآخر يؤيد المذهب الكوفي ويتعصّب به. واستمرّوا على هذه الحالة إلى أن برز فريق ثالث فمزج بين المذهبين. ويعود السبب فى هذا المزج إلى قلّة ماهو جديد في النحو، واتّجه أغلب المتأخرين إلى ترجيح بعض الآراء على بعض، أو استحسان بعض القواعد وتفضيلها على غيرها. ولمّا كان هذا شأنهم لم يؤثروا مذهبا نحويا معينا أو الانضمام إلى مدرسة نحوية معيّنة، لأنّ ذلك يقصر فى أغلب الأحيان عن تلبية ما يذهبون إليه وصار همّهم البحث عن الجديد فى القواعد النحوية، ولا الجديد فىذلك. ولهذا اهتمّوا بآراء النحويين وخلافاتهم أكثر من الاهتمام بالقواعد، فمزجوا بين مختلف المذاهب لتحقيق ذلك.[15]

مدرسة البصرة

إنّ الحديث عن مدرسة البصرة هو الحديث عن النحو العربي منذ نشأته حتّى عصرنا الحاضر. فالذى لاشكّ فيه أنّ النحو بصورته المعروفة، قد نشأ بصريّا وتطوّر بصريّا.

ويكاد الدارسون يجمعون على أنّ النحو العربي نشأ لحفظ القرآن من اللحن، وهم يقدّمون فى ذلك روايات كثيرة عن أبي الأسود الدؤلى وصنيعه فى النحو من أنّه نفسه قد وضع النحو، أوأنّه أخذه عن على ابن أبي طالب رضي الله عنه.

غير أنّ الشيء الواحد الثابث هو أنّ أبا الأسود قد وضع ضبط القرآن بالنقط, وكان هذا العمل الخطوة الأولى فى عمل النحو. ولم يكن هذا الوضع يهدف إلى حفظ النص القرآني من اللحن فقط، وإنّما كان يستهدف إلى غاية أبعد فى أصول

الحياة الإسلامية. وذلك أنّ المسلمين عرفوا في البداية أنّ عليهم قراءة القرآن وفهمه لأنّه هو الذي ينظم حياتهم . ومن ثمّ نستطيع تفسير نشأة الحركة العربية كلّها بأنّها كانت نتيجة نزول القرآن الكريم، فهي كلّها من نحو وصرف وبلاغة وتفسير وفقه وأصول وكلام تسعى إلى هدف واحد: هو فهم النص القرآني. [16]

ولا ننسى أنّ أبا الأسود كان من أئمة القراء، وأنّ ابن أبى إسحاق الحضرمى وعيسى بن عمر كانا من القرّاء أيضا، وأنّ أبا عمرو بن العلاء هو إمام البصرة فى القراءة وأحد القراء السبعة كذلك .

النحو إذن نشأ لفهم القرآن، وفرق كبير بين علم يسعى لفهم النص وعلم يسعى لحفظه من اللحن. ولو كانت الغاية منه حفظ النص من اللحن، لما أنتج العرب هذه الثروة الضخمة فى محال الدرس النحوي. ومحاولة الفهم هي التى حدّدت مسار المنهج لأنّها ربطت درس النحو بكل المحاولاة الأخرى التى تسعى إلى فهم النص. ومن ثمّ فإنّ دراسة منهج النحو عند العرب لا تكون صحيحة إلا مع اتصالها بدراسة العلوم العربية الأخرى وبخاصّة الفقه والكلام.

سبقت البصرة إلى وضع النحو منذ القرن الأول الهجري، وقد عرفت البصرة فى تاريخ النحو بأنّها المدرسة التى وضعت أصول القياس النحوى، وأنّها كانت تسعى إلى أن تكون القواعد مطردة اطرادا واسعا. ومن ثم كانت تميل إلى طرح الروايات الشاذّة دون أن تتخذها إطارا لوضع قانون نحوى. ولذلك كانت تتحرى صحة الاستقراء اللغوى، كما رفضت الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف لما ادعى من جواز روايته بالمعنى ولدخول كثير من الأعاجم فى هذه الرواية. [17]

أوائل نحاة البصرة

يعدّ ابن أبى إسحاق الحضرمي من أول النحاة البصريين.[18] ويتبعه فى هذه الأوليّة البكرة جيل من تلاميذه فى مقدّمتهم عيسى بن عمر الثقفى، وأبو عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب ن حتّى كان الخاليل بن أحمد وتلميذه سيبويه اللذان يعتبران بحقّ الواضعين للنحو العربي بصورته المعروفة.

مدرسة الكوفة

كان ازدهار النحو فى مراحله الأولى يرجع إلى التنافس الشديد بين مدرستي البصرة والكوفة الذى أدّى إلى الخلاف حول كثير من ظواهر العربية. وحقا سبقت عليها البصرة فى وضع النحو، لكنّ الكوفة ما لبثت أن دخلت ميدانه، على أنّ هناك حقيقة معروفة هي أنّ الكوفة تعلّمت النحو من البصرة ثمّ بدأت تتخذ لنفسها منهجا خاصّا فيه حتّى تشكّلت لها مدرسة متميزة، ولا نكاد نجد مسألة من مسائل النحو إلا وفيها مذهبان: بصري و كوفي.

كانت الكوفة مهجر كثير من الصحابة، وازدهر فيها الفقه وكثرت فيها رواية الأشعار والأخبار. وأهمّ ما يميز الكوفة من البصرة أنّها كانت أكبر مدرسة لقراءة القرآن، وخرج منها ثلاثة من القرّاء السبعة وهم عاصم وحمزة والكسائي. وعلم القراءات يعتمد على الرواية والتلقى والعرض، وهو علم يتوقف أولا وآخرا على الرواية، والتلقي والعرض هما أصحّ طرق النقل اللغوي. وقيل إنّ القراءات هي التى طبعت المدرسة الكوفية بطابعها فى كثير من نواحى النشاط العقلى، وخاصّة فى النحو.

والكوفة كانت تعتمد على المثال الواحد لتجعله ظاهرة عامة بحيث تستخرج منه القاعدة التى تراها صالحة للاستعمال. وكان للكوفيين مصطلحات خاصة بهم ساد بعضها النحو العربي كالنعت، وظلّ بعضها منسوبا إليهم كمصطلح "الخلاف "، وهو عامل معنوي كانوا يعتبرونه علة النصب فى الظرف إذا وقع خبرا مثل: زيد أمامك.[19]

قد أجمع العلماء على أن نحو الكوفيين يشكلّ مدرسة مستقلة ، سواء منهم أصحاب كتب الطبقات والتراجم مثل ابن النديم (فى كتابه "الفهرست") والزبيدي (فى كتابه "طباقات النحويين واللغويين ")، أو أصحاب كتب المباحث النحوية إذ نراهم دائما يعرضون فى المسائل المختلفة وجهتي النظر المتقابلتين فى المدرستين البصرة والكوفة .[20]

ومن أشهر علماء مدرسة الكوفة الأوائل هو أبو جعفر الرؤاسي، وهو أول من وضع كتابا فى النحو من الكوفيين، وكان أستاذا للكسائى والفرّاء.[21] ولكنّ النحو الكوفي قد بدأ بداية حقيقية بالكسائي وتلميذه الفرّاء، فهما اللذان رسما صورة هذا النحو ووضعا أسسه وأصوله، وأعدّه بفطنتهما لتكون له خواصّه التى يستقلّ بها عن النحو البصري.

إنّ النحو فى المدرسة الكوفية لم يتم تشكلها إلا بالفراء وبآرائه ومقاييسه وما اعتمده من تفسير على بعض الظواهر اللغوية، وما وضعه من مصطلحات نحوية خالف بها مصطلحات البصريين، ممّا يجعله الإمام الحقيقي لهذه المدرسة. وحقا سبقه فيها أستاذه الكسائي، ولكن لم يكن للكسائي دقة عقله وغور ذهنه بحيث يرسي قواعد المدرسة ويرفع أركانها. وهناك ثلاثة طوابع كبيرة تشيع فى هذه القواعد والأركان،[22] وهي :

(1) طابع الاتساع فى الرواية: تفتح جميع الدروب والمسالك للأشعار واللغات الشاذّة.

(2) طابع الاتساع فى القياس: يقاس على الشاذّ والنادر دون تقيّد بندرته وشذوذه.

(3) طابع المخالفة فى بعض المصطلحات النحوية وما يتّصل بها من العوامل.

الفروق بين مدرستي البصرة والكوفة:

مدرسة البصرة	مدرسة الكوفة
(1) اشتهر أصحاب هذه المدرسة بصحة القياس لعدم اكتراثهم بجميع المسموع من العرب، بل كانوا يقفون عند كلّ ذلك ويرون رأيهم فيه بقياسه على المشهور من كلام العرب.[23]	(1) اعتدّت المدرسة الكوفية بالمسموع وأخذت بكلّ ما سمع من العرب دون استثناء شيء من ذلك.
(2) لا يقيس البصريون على الشاذ من شواهد الشعر وأقوال العرب ولهجاتهم.	(2) يراعى الكوفيون القياس على الشاذ، وقد يقيسون على الواحد ويبنون مسألة نحوية على ضوئه.[24]
(3) البصريون تشدّدوا ولم يثبتوا فى كتبهم النحوية إلا ما سمعوه من العرب الفصحاء الذين سليمت فصاحتهم من شوائب التحضّر وآفاته،	(3) اتّسع الكوفيون فى رواية الأشعار وعبارات اللغة، وأخذوا عن جميع العرب بدويّهم وحضريّهم.

وهم سكان البوادي .[25]	
(4) اشتهروا بالتأويل ، فأضافوا أعباء كثيرة على النحو العربي ، وقالوا بأشياء لم تكن العرب قد قالت بها ، وإنّما كان ذلك من وحي أفكار هؤلاء النحويين .	(4) أخذ الكوفيون بما يظهر من تلك القواعد، وما يفهم منها من خلال كلام العرب دون تأويل.
(5) شغل البصريون بوضع نقط الإعراب فى الذكر الحكيم، ووضع نقط الإعجام، والأنظار النحوية والصرفية الأولى.	(5) شغل الكوفيون بالأفقه ووضع أصوله ومقاييسه وفتاواه ، وبالقرءات القرآنية ورواياتها رواية دقيقة . وعنيت عناية واسعة برواية الأشعار القديمة وصنعه دواوين الشعر.[26]

الخاتمة

إنّ النحو العربي أساس ضروري لكلّ دراسة للحياة العربية، فى الفقه والتفسير والأدب والفلسفة والتاريخ وغيرها من العلوم، لأنّه لا يمكن إدراك المقصود من نصّ لغوي دون معرفة النظام الذي تسير عليه هذه اللغة.

عندما دبّ اللحن إلى الملكات والألسنة، كان لا بدّ من عمل إيجابي بوضع قواعد يستر الناس بها. فقام العلماء

بوضع علم النحو العربي لانتشار اللحن ولغيرة المسلمين وحرصهم على لغة دينهم أي لغة القرآن الكريم.

ومن الملاحظ أنّ أغلب النحويين المتقدمين حرصوا على اتّخاذ مذهب نحوي معيّن، ويعدّ المذهبين البصري والكوفي أساسا للمذاهب الأخرى التى تكوّنت ونشأت فيما بعد. وقد لعب كلا المذهبين دورا فعّالا فى نشأة النحو العربي، ولا ننسى أنّ المذاهب أو المدارس التى تكوّنت بعدهما قد ساهمت أيضا فى نشأة هذا العلم الجليل.

الملاحظات:

[1] أبو يعقوب يوسف بن بكر محمد السكاكى، **مفتاح العلوم**، منشورات المكتبة العلمية الجديدة – بيروت, ص: 37

[2] أبو الفتح عثمان بن جنى ، **الخصائص**، تحقيق محمد النجار، دار الهدى للطباعة والنشر – بيروت, ص : 341/1

[3] جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري: **لسان العرب**، دار صادر – بيروت, .199, ص : 310/15-309

[4] ناصر حسين على, **قضايا نحوية وصرفية**، المطبعة التعاونية – دمشق, 1989. ص : 6-7

[5] شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، دار المعارف – القاهرة.1983. ص : 11-12

[6] المختار أحمد ديرة، **دراسة النحو الكوفي: من خلال معاني القرآن للفرّاء** (رسالة ماجسنير من جامعة الفاتح – طرابلس)، الطبعة الأولى، دار قتيبة – بيروت, 1991, ص : 44

[7] قضايا نحوية : 9

[8] محمد المختار، **تاريخ النحو العربي فى المشرق والمغرب**، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة – ايسيسكو, 1996, ص: 43

[9] **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب** : 23-26

[10] **قضايا نحوية وصرفية** : 13

[11] **قضايا نحوية وصرفية** : 14

[12] عبده الراجحي، **دروس فى المذاهب النحوية** ، دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية, 1981 ص: 159-160

[13] **دروس فى المذاهب النحوية** : 215-216
[14] عبده الراجحي، **دروس فى المذاهب النحوية** ، دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية 1981 ص: 250
[15] **قضايا نحوية وصرفية** : 15
[16] **دروس فى المذاهب النحوية** : 9-10
[17] **دروس فى المذاهب النحوية** : 11
[18] **المدارس النحوية** : 22
[19] **دروس فى المذاهب النحوية** : 89 - 91
[20] **المدارس النحوية** : 155
[21] محمد الشاطر أحمد، **الموجز فى نشأة النحو**، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة , 1983, ص : 52-53
[22] **المدارس النحوية**, ص : 158
[23] **قضايا نحوية وصرفية**, ص : 15
[24] قضايا نحوية وصرفية, ص : 16
[25] **المدارس النحوية**, ص :159
[26] **المدارس النحوية**, ص :153

المـــراجع

أبو الفتح عثمان بن جنى ، **الخصائص**، تحقيق محمد النجار، دار الهدى للطباعة والنشر – بيروت .

أبو يعقوب يوسف بن بكر محمد السكاكى، **مفتاح العلوم**، منشورات المكتبة العلمية الجديدة – بيروت .

أحمد الحسن سماعة, **تاريخ النحو العربي: نشأته وتطوّره**، الجامعة الإسلامية العالية – ماليزيا.

المختار أحمد ديرة، **دراسة النحو الكوفي. من خلال معاني القرآن للفرّاء** (رسالة ما جسنير من جامعة الفاتح – طرابلس)، الطبعة الأولى، دار قتيبة – بيروت. 1991.

جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري, **لسان العرب**، دار صادر – بيروت .1990.

شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، دار المعارف – القاهرة. 1983.
عبده الراجحي، **دروس فى المذاهب النحوية** ، دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية 1981.
محمد الشاطر أحمد، **الموجز فى نشأة النحو**، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة . 1983 .
محمد المختار، **تاريخ النحو العربي فى المشرق والمغرب**، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة – ايسيسكو . 1996.
ناصر حسين على, **قضايا نحوية وصرفية**، المطبعة التعاونية – دمشق. 1989.

Subhan Mughni, dosen Jurusan Tarbiyah STAIN "SMHB" Serang.